

من القصد إلى الفعل

محاولة لإعادة بناء "مشكلات الحضارة" عند مالك بن نبي (1905-1973)*

د. حسن حنفي حسنين

إن مهمة الجيل الحالي من الإصلاحيين هو تطوير الجيل الماضي وليس تقريظه ومدحه «قتل الخراصون»¹. فالمدح يُميت، والقراءة تُحيي. التقريظ يُنهي، والنقد يبدأ. وكما طوّر "مالك بن نبي" عبد الحميد بن باديس، وكلاهما من قسنطينة، كذلك يُطوّر الجيل الحالي "مالك بن نبي"². وهذا هو حق الأستاذ على التلميذ، وواجب التلميذ تجاه الأستاذ. ولا تقلل القراءة النقدية من الجيل الحالي من قيمة الجيل الماضي بل تُغنيه وتوسّع آفاقه، وتحكم خطابه، وتبلور أهدافه، وتوضّح مقاصده.

هكذا فعل الأنبياء والرسل، رسالتهم واحدة وأساليبهم وشرائعهم مختلفة. الرسالة: التوحيد، وتطوّرها: في الخطاب. لا فرق بين رسالة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام: تحرير الوعي الإنساني من قهر الطبيعة والاجتماع وطرقهم في التعبير وصياغتهم

* محاضرة أُلقيت بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على وفاته.

¹ أستاذ بكلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر.

² الذاريات، 10.

² حضور ابن باديس في "مذكرات شاهد قرن" حضور باهت. ولا يُذكر إلا كبلدياته من قسنطينة.

للشرائع مختلفة. مقاصد الشريعة واحدة، تحقيق المصالح العامة وطُرقها متباينة؛ الطاعة في اليهودية، والمحبة في المسيحية، والعدل في الإسلام. وطبائع الرسل متباينة : نوح عليه السلام الغاضب، وإبراهيم عليه السلام المحاور، وموسى عليه السلام صاحب الشريعة، وعيسى عليه السلام الداعي للمحبة، ومحمد عليه السلام المُعلنُ استقلال الوعي الإنساني عقلا وإرادة. لذلك قال السيد المسيح "ما جئت لأُلغي الناموس بل جئت لأُكمّله". كما أن القرآن أتى مصدّقاً للكتب السابقة ومهيّنا عليها.

1- تطوير الإصلاح من جيل إلى جيل

ويعني "من القصد إلى الفعل" تحويل فكر "مالك بن نبي" من المقاصد والأهداف وحُسن النوايا إلى تحقيقها بالفعل في صياغات نظرية محكمة. يعني نقل الفكر الإصلاحي كلّ من مرحلة "الأفغاني" حتى "مالك بن نبي"، مرحلة الخطابة والصحافة والصحوة وحشد الجماهير إلى مرحلة التحليل والبحث العلمي مع أخذ التغيّر في الزمان والمكان والبيئة الثقافية في الحسبان. فقد امتدت الحركة الإصلاحية على مدى قرنين من الزمان أو يزيد، واتّسع نطاقها وشملت عدة ثقافات ولغات عربية وإسلامية وغربية، إفريقية وآسيوية بل وأوروبية. فالمصلح لا يعرض المصلح بل يُعيّد قراءته ويطوّره حتى يتراكم الإصلاح ويتحوّل إلى تيار فكري عام بصرف النظر عن أشخاص المصلحين.

يقوم جيل جديد بإعادة قراءته وتطويره -فكر مالك بن نبي- بعد ثلاثين عاما وقعت فيه أحداث كبرى، وهو ابن الأحداث منذ 1973 حتى 2003. فقد اندلعت حرب أكتوبر قبل وفاته بخمسة وعشرين يوما دون أن

يتمثلها أو يُشير إليها وهو في مرضه الأخير. ثم حدثت زيارة القدس في نوفمبر 1977 وتوقيع معاهدة كامب ديفيد في 1978 ومعاهدة السلام في 1979 بين مصر وإسرائيل، واندلاع الثورة الإسلامية في إيران في فبراير 1979، واغتيال السادات في أكتوبر 1981 وتغيّر الحكم في مصر من الجمهورية الثانية إلى الجمهورية الثالثة، وغزو جنوب لبنان واحتلال بيروت في 1982، وضرب المفاعل النووي العراقي في 1984 ثم معاهدة وادي عربة بين الأردن وإسرائيل، ثم اندلاع انتفاضة الحجارة في 1987، ثم العدوان العراقي على الكويت في 1990، والعدوان الأمريكي على العراق في 1991، وانحيار المعسكر الشرقي ونهاية نظام القطبين في 1991، ثم العدوان الثاني الأمريكي على العراق في 1998، واندلاع انتفاضة الأقصى المسلحة في 2000، وتفجيرات واشنطن ونيويورك والاحتلال الأمريكي لأفغانستان في 2001، ثم الاحتلال الأمريكي للعراق في 20 مارس 2003، واندلاع المقاومة العراقية حتى الآن.

كان "مالك بن نبي" بالنسبة لجيلنا مفكرا إسلاميا تقدّميا إصلاحيا... التقيتُ به في أوائل السبعينات عام 1972 عندما حضر إلى أمريكا بدعوة من رابطة الطلبة المسلمين إلى "فيلادلفيا" وقابلته مع "عبد الحميد أبو سليمان" و"أنيس أحمد" في بيت أحدهما. وقدّمته في محاضراته في جامعة "تمبل". تعلّمت منه أن فصل باكستان عن الهند كان مؤامرة بريطانية هدفها عزل الإسلام في باكستان عن محيطه الطبيعي في الهند بعد الاعتراض على تحليله بأن ذلك كان من فعل الشيطان، لأن الشيطان لا يدخل في العلوم السياسية. وكنا مغرمين بإنشاء الدولة الإسلامية في باكستان وبانفصالها عن الهند، ومتأثرين بـ "محمد إقبال" و"أبو دودي"،

ومعجيين بـ "محمد علي جناح". ويمكن القول بأن مؤلفاتي الشعبية هي استئناف لفكر "مالك بن نبي" بنفس الهموم. وقد صدرت معظمها بعد وفاته¹. ويغلب على الخطاب روح الحركة الإصلاحية... فـ "مالك بن نبي" في النهاية مناصر لـ "عبد الحميد بن باديس". والجيل الحالي من الإصلاحيين الجزائريين هم تلاميذه بطريقة أخرى. ويشير "مالك بن نبي" إلى "عبد الحميد" في بعض كتبه بل ويشير إلى أصول الحركة الإصلاحية ومصادرها الأولى عند "الأفغاني" و"محمد عبده" و"الكواكبي" و"محمد إقبال"... ويشير إلى حركات الإصلاح الحديثة التي ينتسب إليها². ويخرج من مآسي المسلمين المعاصرين وفوضى العالم الإسلامي الحديث. ويشير ببواكير نهضة جديدة باتباع طرق جديدة للفكر والممارسة وبعثه الروحي. والإصلاح دعوة للتغيير³. فقد نشأت حركة الإصلاح في الجزائر من أجل التحرر والاستقلال ضد الاحتلال والتخلف. والمسلم له دور رسالة في الثلث الأخير من القرن العشرين⁴، مما يدل على الإحساس بالعصر وضرورة القيام بالرسالة فيه. فالإصلاح ليس النظر بل إصلاح العمل، ليس فقط إعادة فهم، بل تنشيط فعل وحشد طاقة.

¹ وهي: قضايا معاصرة ج1 في فكرنا المعاصر 1976، ج2 في الفكر الغربي المعاصر 1977، الدين والثورة في مصر 1989، هموم الفكر والوطن ج1، التراث والعصر والحداثة ج2، الفكر العربي المعاصر 1998، حصار الزمن ج1 الماضي، ج2 المستقبل، ج3 الحاضر: أ- مفكرون عرب معاصرون، ب- مشكلات معاصرة 2004.

² في مهبّ المعركة، الفصل الثاني، النهضة: حركة الإصلاح، الحركة الحديثة ص45-73، فوضى العالم الإسلامي الحديث، العوامل الداخلية والخارجية ص75-117، الطرق الجديدة ص139-161، بواكير العالم الإسلامي ص163-178، المثال الروحي لعالم الإسلام ص181-186.

³ من أجل التغيير.

⁴ دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.

2- المؤلفات والأسلوب

وكثير من المؤلفات مقالات تجميعية تم نشرها في الصحف، وأحيانا تم تجميعها بأكثر من عنوان. ويتم في بعض المؤلفات التنبيه على عنوان الكتاب ومضمونه ويكون التنبيه من المؤلف أو المترجم¹. وأكثر المؤلفات كتب لها بنية محكمة غير العناوين الافتراضية التي القصد منها وضع المقالات المتشابهة تحت موضوع واحد. وأقل المؤلفات تجميع لمقالات صحفية نُشرت أغلبها في مجلة "الثورة الإفريقية"².

وقد يكون لبعض المؤلفات عناوين فرعية تحدّد الظرف التاريخي لها³. لذلك ظلّ الفكر حدثيا أي مرتبطا بالأحداث، وآنيّا أي مرتبطا بالظروف، بالزمان والمكان. الموضوعات هي الأحداث الجارية، الكبيرة منها والصغيرة: الاستعمار، التخلف، والثورة. لا يبدأ الفكر من نفسه ومن موضوعاته بل من خارجه. الفكر في مواجهة العالم، وتابع لأحداثه.

¹ وجهة العالم الإسلامي، تنبيه (المؤلف) ص15، فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر بانلونج) ص12، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص7.

² الكتب المؤلفة هي: 1- الظاهرة القرآنية، 2- شروط النهضة ومشكلات الحضارة، 3- وجهة العالم الإسلامي، 4- فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر بانلونج)، 5- مشكلة الثقافة، 6- فكرة كومونولث إسلامي، 7- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 8- ميلاد مجتمع، 9- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 10- المسلم في عالم الاقتصاد، 11- مذكرات شاهد قرن (الطفل، الطالب). والكتب التجميعية هي: 1- تأملات، 2- في مهبط المعركة، 3- القضايا الكبرى، 4- بين الرشاد والتيه، 5- من أجل التغيير، 6- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.

³ وذلك مثل: 1- فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر بانلونج)، 2- في مهبط المعركة (إرهاصات الثورة)، 3- ميلاد مجتمع (ج1 شبكة العلاقات الاجتماعية) 4- دور المسلم ورسالته (في الثلث الأخير من القرن العشرين).

وكثير من الأعمال تعليق على مقال أو تفكير على تفكير مثل "وجهة العالم الإسلامي" الذي هو مراجعة وإعادة قراءة لكتاب "الاتجاهات الحديثة في الإسلام" للمستشرق "جب". وقد يكون التعليق على تصريحات سياسية للقادة أو مقالات صحفية لمشاهير الكتاب¹. لذلك يبدو الفكر السياسي فكرا علويا، تنظيرا على تنظير. ويظل "فانزانون"، من جزر الانتيل والذي عاش في الجزائر ودُفن بها، أكثر تنظيرا وإحكاما في الصياغات.

خطاب "مالك بن نبي" هو الخطاب الصحفي العام الموجه إلى عامة الناس وليس الخطاب الفلسفي المحكم. بمصطلحاته ومنطقه وصياغاته النظرية واستدلالاته، مقدماته ونتائجه. ينتمي إلى الفكر العربي المعاصر منذ بداياته في القرن التاسع عشر. ومازال بعد قرنين من الزمان ينقص خطابه الإحكام النظري وهو أسلوب أدبي إنشائي كما تقتضيه طبيعة السامعين مثل "وحد السياسة"، "أبواق الاستعمار"، "حديقة الثقافة"²، يغلب عليه التكرار لأنه دعوة موجهة إلى الناس ولا يشترط فيه البناء النظري. والفكر أيضا تجارب حية يعيشها المفكر بالإضافة إلى التعليقات على القراءات. فهو مفكر وطني جزائري عربي إسلامي إفريقي آسيوي عالمي.

¹ وجهة العالم الإسلامي، مدخل إلى الدراسة ص 17-21، "وأعود فأكرّر أن كتاب المستشرق الإنجليزي بعد مرشدا ثمينا لكتابي هذا في دراسة الأمراض (شبه الصيبانية) في العالم الإسلامي. ولكنكم أتمنى أن يتأمل موضوعاته كثيرون من المسلمين كما تأملتها، وأن يقدروا فيه نزاهته التي سمت على مركب عقيدي أو سياسي"، ص 21.

² في مهبّ المعركة، ص 51، 76، 125.

وتتخلّل السيرة الذاتية بعض المؤلّفات قبل "مذكرات شاهد قرن" خاصة في "تأمّلات"، وهي ليست تأمّلات نظرية خالصة في موضوعات ميتافيزيقية بل هي تفكير اجتماعي سياسي أخلاقي حول الصعوبات باعتبارها علامة في نموّ المجتمع العربي، والمسوغات في المجتمع، وكيفية بناء مجتمع أفضل، وخواطر عن النهضة العربية، ورسالة العرب في العالم. ومن القيم الإسلامية الديمقراطية والتضامن والفعالية والثقافة¹.

وتتوقّف السيرة الذاتية "مذكرات شاهد قرن" بجزئها، الطفل والطالب حتى عام 1942 أي حتى قبل "الظاهرة القرآنية" أولى مؤلّفات. تخلو من الأبواب والفصول والتواريخ الفارقة. لا تظهر فيها البواعث على مشروع "مشكلات الحضارة" فبدت منفصلة عنه. ولا تحيل إلى المؤلّفات التالية بطريقة "الFLASH باك". وتطول مرحلة الطفولة بكل تفصيلاتها دون دلالة واضحة على المشروع كلّ. وتخلو من العمق الفلسفي أو المهمّ الميتافيزيقي. لا تصل الماضي بالحاضر وكأنّ الحاضر لا يتراءى في الماضي. الطفولة سيرة ذاتية محلية في قسنطينة أوّلا والجزائر ثانيا مع أن العمر يمتدّ بالطفل حتى العشرين أي مرحلة الشباب والوعي الثقافي والعلمي. هي طفولة عادية أقرب إلى التاريخ الخالص مع بعض الدلالات على سمات الشخصية مثل المرأة الشقراء ورعاية قطة. ولا يبدو "الطالب" قد اهتم بالتراث القديم أو التراث الغربي. كانت عينه على الواقع الحاضر فحسب، بما يحمله من هموم إسلامية وتمنيات أن تدخل الهند وروسيا منظمة الدول الإسلامية. وقد نادى السلطان "جاليف" من قبل بتجمّع شعوب الشرق،

¹ وأعيد نشر "الديمقراطية في الإسلام" في "القضايا الكبرى" ص 132-164، من أجل التغيير: تأملات على قبر دينيه في بوسعادة ص 70-77.

و"الأفغاني" بالجامعة الشرقية. ويعترف بجهود الساعي رفيق النضال. وتبدو المعاداة للاستعمار الأجنبي والهيمنة اليهودية على مقدرات الوطن. وقد تتصدّر آية قرآنية أو حديث نبوي أو فقرة من الإنجيل أو كلّها معاً بعض المؤلّفات². كما تتصدّر بعض المؤلّفات إهداءات تكشف عن نوع الجمهور المخاطب ويتراوح المهدى إليهم بين الأسرة، الأب والأم اللذين أعطيا الابن أثنى الهدايا، هدية الإيمان¹. وقد يكون الإهداء إلى الشباب المتطلّع إلى العودة بالمجتمع الإسلامي إلى "مسار التاريخ"². وقد يكون الإهداء إلى الشعب الجزائري الثائر أو شهداء الثورة الجزائرية³. وقد يكون إلى رمز من رموز الثورة الجزائرية مثل "الأمير عبد القادر"⁴. وقد

² تتصدر فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج) آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً، وَلَا تَبْعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ البقرة 208، ومن الإنجيل "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون".
¹ "إلى روح أُمِّي... وإلى أبي... والوالدين اللذين قدما لي في المهد أثنى الهدايا... هدية الإيمان"، الظاهرة القرآنية، ص 7.

² "إلى الشباب المتطلّع إلى العودة بالمجتمع الإسلامي إلى حلبة التاريخ"، مشكلة الثقافة، ص 9.
³ "إلى الشعب الجزائري الثائر. إني أحيي كفاحك أيها الشعب الكريم. إني أحيي لأنه كفاح الطفل الجزائري في سبيل مستقبله، ولأنه كفاح المرأة الجزائرية من أجل أمن بيتها وسعادة أسرهما، ولأنه كفاح الشهداء، ولأنه كفاح الأبطال الذين يريقون دماءهم من أجل الحق المقدّس للطفل والمرأة، ولأنه كفاحك أيها الشعب الكريم من أجل البناء والكرامة والحرية. إن الله الذي يبارك صراع الأبرار يبارك كفاحك، ويقوده إلى النصر تحت الراية المقدّسة التي كتب عليها وعده الصادق ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ الروم 47، وجهة العالم الإسلامي، ص 7. "إلى شهداء الثورة الجزائرية الذين حقّقوا بدمائهم الأحلام التي تعبّر عنها هذه الصفحات"، في مهبّ المعركة.

⁴ "إلى الأمير عبد القادر، إلى البطل الأسطوري للملحمة الوطنية التي يجسّد شخصه في فترة فاجعة من تاريخنا مصير وطن وثقافة وحضارة"، القضايا الكبرى ص 19.

يكون إلى جميع الشعوب المكافحة في سبيل الحرية والسلام¹. وقد يكون لأكثر من طرف، الشعوب المحبة للسلام والرئيس "جمال عبد الناصر"². ويضاف إلى أكثر المؤلفات عدّة مقدمات واحدة أو اثنتين، بالإضافة إلى المقدمة الشرعية المتكرّرة من الوصي على نشرها³. وقد يكون المترجم نفسه هو المقدّم⁴. وقد يكون المقدّم هو المؤلف نفسه بمفرده أو مع غيره⁵.

¹ "من أجل الشعوب المكافحة في سبيل الحرية والسلام"، فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج).

² "من أجل الشعوب المكافحة في سبيل الحرية والسلام"، إلى الرئيس جمال عبد الناصر، الذي تتمثل فيه ثورتان: الثورة السياسية التي أعطت مصر الجمهورية، والثورة النفسية التي تعلن في العالم الإسلامي ظهور القيادة الفتية التي تستلم مقود التاريخ من أيدي القيادات الفوضوية"، فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج).

³ الوصي الشرعي هو المحامي اللبناني عمر مسقاوي. 1- "الظاهرة القرآنية" له تقديمان من محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، 2- "وجهة العالم الإسلامي" تقلّم محمد المبارك، 3- "فكرة الإفريقية الآسيوية" تقديم أنور السادات، 4- "مشكلة الثقافة" تصدير عمر مسقاوي، 5- "فكرة كومونيلث إسلامي" مقدمة عمر مسقاوي، 6- "تأملات" تقديم عمر مسقاوي، 7- "القضايا الكبرى" هذا الكتاب بقلم عمر كامل مسقاوي ومقدمة الطبعة الفرنسية لـ نور الدين بوكروح ومقدمة تالية للدكتور عبد العزيز الخالدي، 8- "بين الرشاد والتهية" تقلّم عمر مسقاوي، 9- "من أجل التغيير" مقدمة عمر مسقاوي، 10- "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" تقلّم عمر مسقاوي.

⁴ "شروط النهضة ومشكلات الحضارة" ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي وتقديمه بالإضافة إلى تقلّم ثانٍ للدكتور عبد العزيز الخالدي.

⁵ 1- "مشكلة الثقافة" تصدير عمر مسقاوي، والمقدمتان للطبعتين الأولى والثانية للمؤلف، 2- "تأملات" تقلّم عمر مسقاوي ومقدمة المؤلف، 3- "في مهبّ المعركة" تقلّم عمر مسقاوي، ومقدمة محمود محمد شاكر ومقدمة المؤلف، 4- "ميلاد مجتمع" مقدمة المؤلف، 5- "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" تقلّم عمر مسقاوي ومقدمة المؤلف، 6- "المسلم في عالم الاقتصاد" مقدمة المؤلف.

وقد تطول المقدمة لتصبح مراجعة ودراسة بل نقدا وتجاوزا¹. ومعظم المؤلفات مكتوبة باللغة الفرنسية ثم تمت ترجمتها إلى العربية باستثناء البعض منها الذي كُتب باللغة العربية مباشرة خاصة في فترة الإقامة بالقاهرة². وقد يجمع الكتاب بين التأليف والترجمة³. وقد يكون المؤلف نفسه هو المترجم⁴. وقد يجمع مؤلف بين الترجمة والتأليف⁵، وبالرغم من عروبة المؤلف وتمكّنه من اللغة العربية إلا أن ترجماته من الفرنسية إلى العربية بل وكتبه المؤلفة بالعربية يغلب عليها الأسلوب الفرنسي ومصطلحاته المترجم والمعرّب⁶، بل ويضرب "بن نبي" المثل على أخطاء الترجمة ولكن بمعنى

¹ وذلك مثل مقدمة محمود محمد شاكر لكتاب "الظاهرة القرآنية" ص 17-50.
² المؤلفات المترجمة من الفرنسية: 1- الظاهرة القرآنية (عبد الصبور شاهين)، 2- شروط النهضة ومشكلات الحضارة (عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي)، 3- وجهة العالم الإسلامي (عبد الصبور شاهين)، 4- فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج) (عبد الصبور شاهين)، 5- مشكلة الثقافة (عبد الصبور شاهين)، 6- فكرة كومنويلث إسلامي (الطيب الشريف)، 7- ميلاد مجتمع (عبد الصبور شاهين)، 8- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (ترجمة الدكتور بسام بركة والدكتور أحمد شعبو).
المؤلفات بالعربية هي: 1- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2- تأملات، 3- في مهبط المعركة، 4- القضايا الكبرى، 5- دور المسلم ورسائله في الثلث الأخير من القرن العشرين.

³ المؤلفات التي تجمع بين التأليف والترجمة مثل "المسلم في عالم الاقتصاد"، الجزء "الاقتصاد والاقتصادية"، ترجمة مروان فنواقي، ص 41-48.

⁴ وذلك مثل "الرشاد والتهيه".

⁵ وذلك مثل كتاب "القضايا الكبرى". فالفصول الثلاثة الأولى ترجمها الطيب الشريف ونشرت تحت عنوان "آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفهومية". والفصلان الأخيران "الديمقراطية في الإسلام" و"إنتاج المستشرقين" كتب بالعربية، القضايا الكبرى ص 7.

⁶ مثلا ترجمة L'anti-culture مصطلح ما ضد الثقافة، والأولى الثقافة المضادة، مشكلة الثقافة ص 129. استعمال اللفظ "كومنويلث" في "فكرة كومنويلث إسلامي". وسيكولوجية ص 12. وترجمة Technique الفنية والأفضل اللفظ المغرب التقنية، فكرة كومنويلث إسلامي ص 12، مشكلة الثقافة ص 88-89. تعريب Politique بوليتيك وهي الألعاب السياسية، بين الرشاد والتهيه ص 97-102.

رُبَّ ضارَةٍ نَافِعَةٍ. فكل ترجمة قراءة، تعطي أبعادا جديدة على النصّ الأول لأنها إعادة كتابة له من منظور آخر وفي تجربة إنسانية أخرى هي تجربة المترجم¹.

3- متلقى الخطاب

وهو خطاب "الثورة الجزائرية" التي أهدى إليها أحد مؤلفاته². وكان يمكن أن يظلّ كذلك في مرحلة ما بعد الاستقلال من أجل إعادة بناء الدولة وليس فقط مديرا عاما للتعليم العالي فيها من 1963-1967. وكان يمكن أن يكون فيلسوف الثورة الجزائرية لو أنه تجاوز دور الداعية الثوري إلى المفكر الثوري، من "ماركس" الشاب إلى "ماركس" الكهل، ويكتب "رأس المال الثوري" للعالم الثالث في الثقافة والنهضة والحضارة والاجتماع والتاريخ وليس فقط في الاقتصاد.

ويُعجب "مالك بن نبي" بالثورة المصرية في 1952. أهدى "فكرة الإفريقية الآسيوية" إلى "جمال عبد الناصر"، وقدم الكتاب "أنور السادات"... وللهند وزعيمها "غاندي" مكانة خاصة³. وهي قرين مصر في "باندونج" وفي ثلاثي مصر والهند ويوغوسلافيا، "ناصر" و"كرو" و"ليتو". وقد حدث تقسيم الهند في نفس الوقت الذي وقع فيه تقسيم فلسطين. واستقلت الهند. وما زالت فلسطين كلّها ترزخ تحت الاحتلال الصهيوني.

¹ من أجل التغيير: فلنتكلم عن المعارضة ص22-23.

² في مهبط المعركة، من أجل إصلاح التراب الجزائري ص93-96، ضرورة مؤتمر جزائري لتوجيه العمل ص106-111، تفاهات جزائرية ص112-115. بين الرشاد والتهيه: العامل الجزائري في فرنسا ص55-60، معالم على طريق الحركة النسائية الجزائرية ص61-66.

³ في مهبط المعركة، وحدة الثقافة في الهند ص143-148، تحية إلى داعية اللاعنف ص149-152، رومان رولان ورسالة الهند ص153-158.

و"مالك بن نبي" هو مفكر العالم الثالث الذي ظهر إلى الوجود منذ مؤتمر "باندونج"، ونظّر له في "فكرة الإفريقية الآسيوية" (في ضوء مؤتمر باندونج)، وتحديد محور طنجة-جاكارتا في مقابل محور واشنطن-موسكو، العالم الثالث في مقابل العالمين الأول والثاني وهو فهم سياسي جديد للعالم الإسلامي الذي يمتدّ كله في إفريقيا وآسيا¹، وأحيانا يتمّ التركيز على إفريقيا وحدها²، وأحيانا أخرى يتمّ التركيز على آسيا وحدها.

وتتكوّن فكرة الإفريقية الآسيوية من ثلاثة أجزاء: الأول الرجل الأفروآسيوي في عالم الكبار وهو من أبناء الاستعمار، يتعايش معه، ويتأثر به. والثاني بناء الفكرة الأفروآسيوية وتأصيلها تاريخيا وحاضر الكتلة العربية الآسيوية. فالعرب هم قلب إفريقيا، وإمكانية تحملها مسؤولية النهضة والحضارة عن طريق الثقافة والاقتصاد. والثالث رسالة فكرة الأفروآسيوية والتعايش بين شعوبها وعلاقتها بالعالم الإسلامي وأوروبا والمجتمع الدولي. كما يتمّ الحديث عن العالم الإسلامي صراحة متميّزا عن العالم الإفريقي الآسيوي، وهو أشمل وأعمّ في "فكرة كومونيلث إسلامي". يرمز إليه الحجّ باعتباره مركزا له وله مبرراته الجغرافية والسياسية والنفسية والفنية (العلمية)³. ويتكوّن من ثلاثة أقسام: الأول "مشروع دراسة شاملة" لتأصيل الفكرة تاريخيا ومحيطها الجديد وأولوية المعيار الاجتماعي وما يعوق الفكرة من تقليد وفوضى الأشياء والأفكار والاضطراب العام.

1 مشكلة الثقافة: تعايش ثقافي على محور طنجة-جاكارتا، ص 100-112، تأملات: التضامن الإفريقي الآسيوي، ص 95-121.

² من أجل التغيير: مهمّة النخبة الإفريقية ص 78-85، صحافة العالم الثالث ص 115-119.

³ فكرة كومونيلث إسلامي ص 12-13.

ويُجدّد المشروع في صياغةٍ ومبرراتٍ جديدةٍ مع توضيحٍ للأسباب الجغرافية والسياسية والعلمية بالإضافة إلى الأسباب النفسية. والثاني "قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي" من حيث ضعفها وترصد الاستعمار لها ونقص الفاعلية في العالم الإسلامي. والثالث "وظيفة كومونيلث إسلامي" ومقارنته بشبيهه البريطاني، وإمكانية تجاوز مشاكله بمفاهيم إسلامية جديدة مثل الشهادة والرسالة. ويعي "مالك بن نبي" التوجّه نحو الشرق، ونهضة الشرق، وما يسمّى حالياً "رياح الشرق"¹.

يمكن تصنيف خطاب "مالك بن نبي" في مجال خطاب ما بعد الاستعمار الذي يحلّل ما آلت إليه حركات التحرّر الوطني، وما خلفه الاستعمار وراءه من بقايا نفسية وذهنية في الفرد، وثقافية وحضارية في المجتمع. ويهدف إلى تحليل الدولة الوطنية الجديدة ونجاحها أو فشلها في تحقيق برامجها الوطنية في التعليم والثقافة وخططها الاقتصادية في التنمية. كما تظهر في هذا الوقت المبكر التفرقة بين الاستعمار والقابلية للاستعمار أي الموضوع والذات، الواقع والإمكانية. وهو في هذا يشابه عديداً من المفكرين في العالم الإسلامي مثل "علي شريعتي"، وفي الهند مثل "بارتا كاشارجي" و"أشيس ناندي" و"راجني كوتاري" وغيرهم².

ويتناول "في مهب المعركة" أيضاً موضوع الاستعمار ووضعه تحت المجهر واكتشاف فوضاه وفتحه جبهة ثالثة في التاريخ بين المستعمر والمستعمر وهي الحرية مع نقد أبواق الاستعمار وأعدائه وتابعيه من ملوك

1 أنور عبد الملك: ريح الشرق، دار المستقبل العربي، القاهرة 1983.

2 المرجع السابق ص 137-150.

وأمرء وعقد مؤتمرات لا فائدة منها¹. ويعرف الاستعمار قيمة الأفكار وفعاليتها². ونظرا لأهمية موضوع الاستعمار فإنه يدخل عنوانا في "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة". والاستعمار ليس ظاهرة موضوعية فقط بل أيضا ظاهرة نفسية كما وضح ذلك في "نحن والاستعمار"³. ولا تظهر الصهيونية في فكره إلا بعد هزيمة حزيران-يونيو 1967 وهو في مصر. ولم تظهر بوضوح إلا في "بين الرشاد والتهيه" الذي كُتب بين 1965/1967. وخُصّص الفصل الرابع "في قضية فلسطين" إلى القضية الفلسطينية في عدة مقالات كتَبَ معظمها عام 1967⁴.

4- وحدة المشروع

ويمكن دراسة فكر "بن نبي" من أعماله السبعة عشر مرتبة ترتيبا زمانيا فربما تطوّر من العمل الأول "الظاهرة القرآنية" إلى العمل الأخير "مذكرات شاهد قرن"⁵. وقد يساعد ذلك على معرفة إذا ما كان هناك تطوّر في فكره الإصلاحي أم أن هناك منطلقات ثابتة من البداية إلى

1 في مهبّ المعركة ص 17-47، أقلام وأبواق الاستعمار ص 76-81، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية والاستعمار ص 82-93.

2 فكرة كومنويلث إسلامي: الفكرة ومراقب الاستعمار ص 54-58.

3 من أجل التغيير: الفصل: نحن والاستعمار ص 99-125، ويتضمن: أرغن الإمبريالية، الأسباب الصغرى والأسباب الكبرى، صحافة العالم الثالث، العبرة من جريمة.

4 بين الرشاد والتهيه: الفصل الرابع: في قضية فلسطين ص 103-143، وتشمل مقالات: عشرون سنة من بعد، ثمن الوحدة العربية، لحظة الفلاش، لحظة التأمل، هيئة الأمم تدين شعب فلسطين، مفاتيح العرب.

5 وهي مرتبة كالتالي: 1- الظاهرة القرآنية 1946-1947، 2- شروط النهضة ومشكلات الحضارة 1948، 3- وجهة العالم الإسلامي 1954-1959، 4- فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر بادندونج) 1956، 5- مشكلة النفاقة 1959، 6- فكرة كومنويلث إسلامي 1960، 7- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 8- تأملات 1960-1961، 9- في مهبّ المعركة 1961، 10- ميلاد مجتمع، 11- القضايا الكبرى 1964، 12- بين الرشاد والتهيه 1965-1967، 13- من أجل التغيير 1967-1968، 14- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1970، 15- المسلم في عالم الاقتصاد 1972، 16- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين 1972، 17- مذكرات شاهد قرن.

النهاية. والأغلب هي المنطلقات الثابتة من البداية إلى النهاية مع تطبيقات متعدّدة في الثقافة والسياسة والاجتماع والأخلاق والتاريخ. والمشروع كلّه يبدأ من العمل ويتوجّه إليه. وتجربة العصر كلّه هي تجربة الثورة والاستقلال. فالثورة روح العصر وهو معنى "الإطراد الثوري". وهي التزام خلقي. المهمّ هو أن تتحوّل إلى دولة¹. الثورة هي طريق الاستقلال، ليس فقط استقلال الدولة بل بداية باستقلال الإنسان². المشروع إذن تأسيس نظري لثورة عملية يبدأ بتثوير الفكر من أجل تثوير الواقع ومن إصلاح الفرد إلى إصلاح الأمة.

ويدور فكر "مالك بن نبي" على ثلاثة محاور: الأول التراث القديم الذي لم تساعده الظروف على الاستمرار فيه بعد "الظاهرة القرآنية". وتحوّل من التراث الإسلامي القديم إلى الثقافة الإسلامية المعاصرة. فنقص المشروع جذوره التاريخية لصالح فروعه الحاضرة. والثاني التراث الغربي، ولما غاب التخصص الدقيق والعودة إلى المصادر الأولى فيه تحول إلى الثقافة الغربية العامة الواسعة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتي يعتمد عليها في تحليل الواقع الآني خاصة ما شاع منها في الثقافة العربية المعاصرة. والثالث تلخيص تحديات العصر كلّها في "مشكلات الحضارة". بما في ذلك النهضة والتحرّر من الاستعمار، والقضاء على التخلف ومظاهره من فقر وقهر وتجزئة، وذلك عن طريق التنظير المباشر للواقع، وتحويل أحداث عصره إلى مرتكزات فكرية مثل مؤتمر "باندونج" وتنظيره في "فكرة

¹ بين الرشاد والتهية: الفصل الأول: طريق الثورة ص 11-34.

² بين الرشاد والتهية: الفصل الثاني: في قضايا الاستقلال ص 37-69.

الإفريقية الآسيوية" وهو البُعد الأغلب الذي ساد فكره الإصلاحية. فتوارى خلفه البعدان الأولان، التراث الإسلامي والتراث الغربي وهو الذي أخذ عنوان "مشكلات الحضارة"...

5- الثقافة الإسلامية

و"الظاهرة القرآنية" أهم ما أبدع "مالك بن نبي" من فكر أصيل يحدّد به علوم القرآن ومناهج التفسير، ويضع قواعد جديدة لفهمه من أجل حلّ قضايا المسلمين والدخول في تحديات العصر... و"الظاهرة القرآنية" في أحد جوانبه ردّ فعل على قضية "الشعر الجاهلي" لـ"طه حسين"، وردّ الاعتبار للقرآن ضد ما شاع عن "الشعر الجاهلي" من إنكار حوادث التاريخ خلف قصص الأنبياء، وأن "الشعر العربي" مثل القرآن، كثير منه منحول، يعبر عن خيال الشعراء وتقليد الشعر أكثر ممّا هو منسوب للقائلين به¹. وهي القضية التي أثارها "مرجليوث" وسمّعها "طه حسين" عندما كان في فرنسا في العشرينات. كما أن قضية الصحة التاريخية للنصوص الدينية، التوراة والإنجيل، كانت مثارة منذ بداية العصور الحديثة في القرن السابع عشر خاصة عند "سينوزا" و"أوستريك" و"ريتشارد" و"سيمون". واستمرّت في القرن الثامن عشر عند "فولتير". وبلغت الذروة في القرن التاسع عشر عند "السنج" و"شتراوس" و"رينان" وأنصار النزعة التاريخية. وكانت وراء الاتجاه التحديثي في القرن العشرين عند "كوشو" و"لوازي"².

¹ انظر دراستنا: من الانتحال التاريخي إلى الإبداع الحضاري، قراءة في "الشعر الجاهلي" بعد سبعين عاما لطفه حسين (1888-1973)، حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة 1998 ص25-49.

² الظاهرة القرآنية ص51-108/92-175.

والكتاب غير مقسّم إلى أبواب وفصول، وموضوعاته غير مرّقة ولا تنظم في نسق. ومع ذلك يمكن التعرّف على ستة أقسام: مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية، والحركة النبوية، وأصول الإسلام، بحث في المصادر، والخصائص الظاهرية للوحي، والعلاقة بين القرآن والكتاب المقدّس، وموضوعات ومواقف قرآنية.

ولفظ "الظاهرة" لفظ جديد في علوم القرآن، قبل علم الظاهريات "الفينومينولوجيا"، فلسفة ومنهجها. وهي ظاهرة "الوحي". يترك المؤلف الموضوع ويتّبع قسمة لا تغطيه كظاهرة. وتصبح الظاهرة الدينية بوجه عام وليس ظاهرة الوحي وحدها، وعرض المذهبين المادي والغيبي في تفسيرها، وتعني الغيبي الروحي في مقابل المادي أو الميتافيزيقي في مقابل الطبيعي. ثم تتحوّل الظاهرة إلى "الحركة النبوية" مبدأ النبوة وادعائها¹. ثم يتمّ التحوّل من النبوة إلى النبي، ومن الرسالة إلى الرسول ﷺ، حياته قبل البعثة وطفولته ومراهقته، والزواج والعزلة. ثم يُعرض العصر القرآني في مرحلتيه المكية والمدنية، وكيفية الوحي. ثم يستمرّ تشخيص الوحي في اقتناع الرسول الشخصي ومقام الذات المحمدية باستعمال مصطلحات الصوفية، والفكرة المحمدية كما يفعل المستشرقون قياساً على اشتقاق اسم الدين "المسيحية" من اسم الرسول "المسيح". وتضع الرسالة لصالح الرسول، ويتيه مقياساً، الوحي، العقل والواقع في الاقتناع الشخصي، والمقياسان الظاهري والعقلي. ولا يدخل في الموضوع إلا القسم الرابع "الخصائص الظاهرية للوحي": التنجيم أي أسباب التزلزل، والوحدة

¹ الخصائص الظاهرية للوحي، المرجع السابق ص 179-196.

الكمية، والوحدة التشريعية، والوحدة التاريخية، والصور الأدبية، ومضمون الرسالة¹. وينتهي الكتاب بموضوعات ومواقف قرآنية مثل إرهاب القرآن وما لا مجال للعقل فيه مثل خواتم السور، والمناقضات والمرافقات والمجاز في القرآن، والقيمة الاجتماعية لأفكار القرآن، وهو ما يخرج عن الظاهرة إلى الموضوع².

والجديد في الكتاب هو المنهج المقارن، مقارنة النبوة في القرآن بالنبوة في العهد القديم خاصة "ارميا"، وتفسير نبوته تفسيراً نفسياً. ثم تعقد مقارنات بين القرآن والكتاب المقدس في بعض الموضوعات مثل ما وراء الطبيعة والأخريات والكونيات والأخلاق والاجتماع والوجدانية³. وتتم مقارنات أخرى في قصة يوسف عليه السلام في القرآن والكتاب المقدس. بمنهج نقدي للتعرف على الغرض في الروايتين. ويعتمد الفكر على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تكثر أو تقلّ طبقاً لطبيعة الموضوع ومنطق الاستدلال فيه وما هو متاح من نظريات غربية أو محاولات اجتهدية لخلق وتنظير جديد. وتختلف المؤلفات في اعتمادها على الآيات والأحاديث بين الأقلّ والأكثر. فأكثرها بطبيعة الحال "الظاهرة القرآنية"⁴. وهناك مؤلفات

¹ موضوعات ومواقف قرآنية، المرجع السابق ص 269-300.

² الظاهرة القرآنية ص 93-100/197-209/211-266.

³ الظاهرة القرآنية: الآيات (93)، الأحاديث (23). تأملات: الآيات (28)، الأحاديث (14). القضايا الكبرى: الآيات (28)، الأحاديث (13). وجهة العالم الإسلامي: الآيات (18)، الأحاديث (3). ميلاد مجتمع: الآيات (11)، الأحاديث (5). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: الآيات (11)، الأحاديث (3). مشكلة الثقافة: الآيات (6)، الأحاديث (3). فكرة كومونولث إسلامي: الآيات (3)، الأحاديث (2). بين الرشاد والتهية: الآيات (3)، الأحاديث (5). المسلم في عالم الاقتصاد: الآيات (4). شروط النهضة ومشكلات الحضارة: الآيات (3). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة: الآيات (2). من أجل التغيير: الآيات (1).

⁴ مثل: فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر بادندونج)، في مهبّ المعركة.

تخلو تماماً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية¹. فالفكر الإسلامي قادر على الاستقلال بذاته. يحلل الواقع تحليلًا مباشرًا. ويقدر على معرفة مضمون الآية من الواقع وليس من النص، استقراءً وليس استنباطًا. والدراسات الإسلامية الوطنية تُحيل إلى موقف نقدي من الاستشراق كما هو الحال في "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث" كفصل خامس في "القضايا الكبرى"². فالاستشراق ليس دراسة لموضوع بل موضوع لدراسة³. ويُحال إلى عديد من المستشرقين في مجموع المؤلفات مثل "مارجوليوت" و"درمنجهام" و"جب" و"أربري" و"رينان" و"هانوتو" و"ماسنيون" و"أسين بلاثيوس" و"الأب تيري"، و"لامانس"، و"فيجورو"، و"فولفسون"⁴.

وتغيب إعادة بناء العلوم الإسلامية القديمة إلا من بعض الإشارات العابرة مثل فلسفة الإنسان وأساسها الغيبي أي النظري المبدئي وليس تحليل

¹ القضايا الكبرى ص 167-198.

² انظر: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القلسم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة 1980 ص 75-

110. وأيضاً "مقدمة في علم الاستغراب"، الدار الفنية، القاهرة 1991 ص 29-36.

³ في "الظاهرة القرآنية" يحال إلى: مرجوليوت (7)، درمنجهام (5)، آربري، الأب تيري، لامانس، الأب فيجورو (2). "وجهة العالم الإسلامي": جب (8)، لامانس، لاسال (1). "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة": رينان، هانوتو (2). "القضايا الكبرى": أسين بلاثيوس (2)، رينان، جولدتسيهر (1). "من أجل التغيير": ماسنيون (2).

⁴ في مهبّ المعركة، الأساس الغيبي لفلسفة الإنسان في الإسلام ص 159-166، انظر أيضاً دراستنا: لماذا غاب

مبحث الإنسان في تراثنا القديم؟ دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، القاهرة 1982 ص 393-415.

أسباب غيابها في المجتمعات العربية المعاصرة¹. كما تعقد مقارنة بين الدراسات العصرية والتصوّف الإسلامي². ويستشهد في "البناء الثقافي" ببعض القيم الإسلامية مثل الأخوة³.

وقد ظهر لفظ "الإسلامي" في عديد من المؤلفات⁴... ويُحال إلى عديد من الأعلام الإسلامية، أنبياء وفلاسفة وصوفية وفقهاء... ونادرا ما تُذكر المصنفات التراثية القديمة أو الحديثة...

6- الثقافة الغربية

وأوروبا حاضرة في فكر "مالك بن نبي" واقعا وتاريخا وثقافة ونموذجا. وأحيانا يستعمل مصطلح العالم الغربي¹. والإحالة إليها عابرة.

¹ الدراسات العصرية والتصوف الإسلامي ص 167-170.

² من أجل التغيير: إخوة في الإسلام ص 92-97.

³ هي: 1- وجهة العالم الإسلامي، 2- فكرة كومونيلث إسلامي، 3- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،

4- المسلم في عالم الاقتصاد،

5- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.

⁴ من الأنبياء: إبراهيم، إرميا، إسماعيل، حزقيال، يوسف، يعقوب، موسى، المسيح، ومن الشعراء: امرؤ القيس، حافظ إبراهيم. ومن المؤرخين: ابن الأثير، أبو الفداء القلقشندي. ومن المحدثين: البخاري، مسلم، الترمذي. ومن الصحابة: آل البيت، أبو بكر وعمر وخديجة وعائشة، وصفية وحليمة، ابن مسعود، بلال، أبو ذر. ومن الفلاسفة والمتكلمين والصوفية والفقهاء واللغويين: الباقلاني، الجرجاني، الغزالي، محمود شاكر، النظام، الشافعي، الجاحظ، الحسن بن الهيثم، ابن ميمون، ابن خلدون، ابن تيمية، الفارابي، ابن حزم، ابن الراوندي، ابن سينا، ابن اللادي، ابن النفيس، الأشعري، ابن حنبل، الخليل بن أحمد، ابن باجة. ومن الملوك والقادة: أمنحتب الرابع، قوطيفار، نابليون، مصطفى كمال، محمد علي، الإمبراطور الأكبر، عبد الناصر، غاندي، نهر، أحمد بن بلة، لنكولن، روبسبير، بن بركة، بومدين، بن تومرت، حسن الزعيم، هوشي منه، ماوتسي تونج، جنكيز خان، تيمورلنك. ومن المصلحين والمحدثين: رشيد رضا، محمد عبده، الأفغاني، محمود قاسم، زكي مبارك، محمد عبد الله دراز، بن باديس، إقبال، أبو الكلام آزاد، طنطاوي جوهرى، فانون، محمد بن عبد الوهاب، أمية سيزيه. ومن الحركات الدينية: المرابطون، الموحدون، الوهابيون. ومن المصادر: إمتاع الأسماء، دلائل الإعجاز، السيرة الحلبية، في الشعر الجاهلي، الكامل، الوحي المحمدي، العروة الوثقى. ومن الكتب المقدسة: التوراة، والإنجيل.

ولا يوجد مؤلف واحد في الثقافة الغربية بالرغم من حضورها الشديد في كل المؤلفات كإحالات مرجعية وأطر نظرية... فالإحالات عابرة إلى أسماء الأعلام دون أمّهات المصادر. ففي "الظاهرة القرآنية" يتصدّر من الفلاسفة "ديكارت" ثم "أفلاطون" و"إنجلز" و"نيتشه" و"هيجل" و"داني" و"توما الإكويني"، و"سقراط" و"إقليدس". ومن العلماء المحدثين "هابل" ثم "ماندليف" و"هيلر دي بارانثون" و"اينشتاين"². ومن الأعمال واحد فقط هو كتيب "ماركس" "فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية". وواضح من صدارة "ديكارت" إعمال النظر العقلي كما أعمل "طه حسين" الشك الديكارتي في الشعر الجاهلي. ولا حرج من الإحالة إلى أعلام الماركسية مثل "إنجلز" أو دعاة النفي المطلق مثل "فيورباخ" و"نيتشه".

وفي "وجهة العالم الإسلامي" يتصدّر "ديكارت" و"رينان" أي العقل والعلم... وفي "مشكلة الثقافة" يتصدّر "وليم أوجيرن" ثم "نيوتن" ثم "ديكارت" ثم "كونستانتينوف" تداخلا بين العلماء والفلاسفة... وفي "فكرة كومونيلث إسلامي" لا تظهر إلا الماركسية مما يدلّ على أن الماركسية أحد البواعث على تفكيره سلبا ممّا جعله هدفا لنقد الشيوعيين له بل والاعتداء عليه في أيامه الأخيرة.

¹ الظاهرة القرآنية: ديكارت (6)، المذهب الديكارتي (5)، أفلاطون، إنجلز، هابل (2)، سقراط، إقليدس، داني، بوكاتسيو، توما الإكويني، موسى بن ميمون، هيجل، نيتشه، مانديف، هيلر دي بارانثون، اينشتاين (1).

² وجهة العالم الإسلامي: ديكارت، رينان (3)، القديس يوحنا، توما الإكويني، ماركس، تيلور (2)، أرسطو، امبرواز، جبريت الراهب، جينون، جاليليو، نيوتن، ريكاردو، آدم سميث، مالثوس، بنزار شو، نيتشه، باكونين، ثيوسيديد، ريشيه، تويني. ومن المذاهب الشيوعية (1).

وفي "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" يتصدّر "بافلوف" العالم الروسي صاحب تجارب الفعل الشرطي أو المنعكس، ومن المذاهب الشيوعية، ممّا يدلّ على أن أحد البواعث الفكرية لديه هو مناهضة المادية¹.

وفي "تأمّلات" يتصدّر "ستاخانوف" المادي الروسي ثمّ "آدم سميث" الاقتصادي البريطاني الشهير... وفي "مهبّ المعركة" يتصدّر المؤرخ البريطاني الشهير "تويني"، ومن الفلاسفة "لوك" و"هيجل"، ومن علماء الاجتماع "ليف بريل"². وفي "القضايا الكبرى" يتصدّر "تويني" من جديد ثمّ "لينين" و"نيتشه"... وفي "بين الرشاد والتهيه" يتقدّم "ماركس" على الإطلاق ثمّ "لينين" ممّا يدلّ على وجود الماركسية كدافع سلبي، ثمّ "ديكارت" و"كونت" و"آدم سميث" و"فورييه" و"برودون" ممّا يدلّ على حضور الفكر الاشتراكي، ثمّ "سقراط" و"روسو" و"اينشتاين"، لا فرق بين الفلاسفة والعلماء³. وفي "من أجل التغيير" يتصدّر "إيتين دينيه" الرسام ثمّ "توما الإكوييني" و"سقراط" ثمّ "مونييه"، ومن مؤرخي الفلسفة "جيلسون"، ومن العلماء "أديسون"⁴.

¹ تأمّلات: ستاخانوف (3)، آدم سميث (2)، أفلاطون، روسو، ماركس، أديسون، بطليموس، هوجو، تولستوي، ثيوسيديد، جيزو، تويني، ومن القادة هتلر (1).

² القضايا الكبرى: تويني (5)، لينين، نيتشه (4)، توما الإكوييني، فشته، دافنشي (2)، أفلاطون، إنجلز، ماركس، كالفان، اشبنجلر، جاليليو، أورتيجا، لالاند، أرخميدس، أديسون (1).

³ من أجل التغيير: إيتين دينيه (7)، توما الإكوييني، سقراط (2)، أديسون، جيلسون، اينشتاين (2)، مونييه (1).

⁴ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: أرخميدس (9)، الماركسية (6)، ماركس، سقراط (5)، اينشتاين (2)، توما الإكوييني، باسكال، إنجلز، فيثاغورس، ليبنتز، ميكافيلي، هيجل، هراقليطس، كونت، تويني، دانتون، تولستوي، بوالو، فرويد، بافلوف، تروتسكي (1).

وفي "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" يتصدّر أرخميدس ثم "سقراط"، ثم "أفلاطون"، ثم "ماركس"... وفي "مذكرات شاهد قرن" لا يذكر إلا مصدر "هكذا تكلم زرادشت" لـ "نيتشه"¹.

7- العلوم الإنسانية

وتبدو أهمية العلوم الإنسانية، علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد. فالخطاب الثقافي يجمع بين هذه العلوم ولا يحلّل علما واحدا. ويعتمد على نتائجها في رؤية حضارية إنسانية عامة واحدة. فالإنسان هو الإنسان في كل ثقافة وحضارة وبيئة وتاريخ. علم النفس هو المدخل لتحليل الثقافة. وهو أحد المبررات النفسية وأحد دوافع إقامة كومنويلث إسلامي نظرا لحاجة المسلمين لبعضهم البعض، ومطلبهم في الوحدة المبنية على الأخوة. وهو مرتبط بعلم الاجتماع في علم النفس الاجتماعي. فالإنسان يولد في مجتمع وظواهره النفسية ظواهر نفسية اجتماعية².

وتظهر الأخلاق منذ البداية في "الظاهرة القرآنية". إذ يقوم الوحي على أساس أخلاقي³. وترتبط الأخلاق بالمجتمع. فالأخلاق فردية واجتماعية⁴. والأخلاق هي أساس الثورة. فالثورة قيمة أخلاقية اجتماعية

¹ مشكلة الثقافة 195: الفصل الأول: تحليل نفسي للثقافة ص17-57، الفصل الثاني: تركيب نفسي للثقافة ص59-94. فكرة كومنويلث إسلامي: مبررات سيكولوجية ص12، أسباب نفسية ص41. في مهبط المعركة: سيكولوجية الاستعمار ص17-31. ميلاد مجتمع: العلاقات الاجتماعية وعلم النفس ص65-74.

² الظاهرة القرآنية: أخلاق ص207-208. شروط النهضة ومشكلات الحضارة: التوجيه الأخلاقي ص85-87.

³ ميلاد مجتمع: المجتمع والقيمة الخلقية ص48-53.

⁴ بين الرشاد والتمية: الأخلاق والثورة ص20-28.

سياسية¹. وهي أيضا أساس الاقتصاد². التربية هي ممارسة الأخلاق اعتمادا على علم النفس وعلم الاجتماع، هي الأخلاق التطبيقية لخلق الإنسان الكامل والمجتمع الفاضل³. وفي الاجتماع يتم تحليل المجتمع العربي، بل ويظهر البعد الاجتماعي منذ "الظاهرة القرآنية" في التركيز على القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن وأولوية المعيار الاجتماعي ضمن معايير إقامة كومنويلث إسلامي⁴. ويتجلى علم الاجتماع في "ميلاد مجتمع" في علاقته بالأخلاق وعلم النفس والتربية والتاريخ والدين والجغرافيا⁵. وهو تفكير اجتماعي مثل باقي المصلحين منذ "الأفغاني" حتى "علال الفاسي"، وكما يتضح ذلك في "ميلاد مجتمع"، إذ يحلل نشأة المجتمعات تاريخيا ويبحث عن أصل العلاقات الاجتماعية وطبيعتها الداخلية والخارجية، والأمراض الاجتماعية والتربية الاجتماعية وكيفية استثمار الثروة الاجتماعية. وعلم الاجتماع هو المدخل لدراسة الاستقلال⁶. والمجتمع

¹ المسلم في عالم الاقتصاد: الأساس الأخلاقي لعمليتي الإنتاج والتوزيع ص103-108.

² الظاهرة القرآنية: أخلاق ص207-208. شروط النهضة ومشكلات الحضارة: التوجيه الأخلاقي ص85-87.

³ ميلاد مجتمع: فكرة التربية الاجتماعية ص75-81، الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص102-115.

⁴ الظاهرة القرآنية: اجتماع ص209، القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن ص297-300. وجهة العالم الإسلامي: مجتمع ما بعد الموحدين ص23-43. فكرة كومنويلث إسلامي: أولوية المعيار الاجتماعي ص24-25، قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي ص49-64، الالفاعلية في المجتمع الإسلامي ص59-64. في مهبط المعركة: في الحقل الاجتماعي ص93-124. تأملات: الصعوبات بوصفها علامة نمو في المجتمع العربي ص17-30. المسوغات في المجتمع ص33-48، كيف نبني مجتمعا أفضل ص153-173.

⁵ ميلاد مجتمع: النوع والمجتمع ص15-19، أصل العلاقات الاجتماعية ص28-30، طبيعة العلاقات ص31-36، الثروة الاجتماعية ص37-41، المرض الاجتماعي ص42-47، شبكة العلاقات والجغرافيا ص59-64، شبكة العلاقات الاجتماعية والاستعمار ص82-93، دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص101-104.

⁶ بين الرشاد والتهيه: نظرة علم الاجتماع في الاستقلال ص39-48.

بنية. فهناك بناء اجتماعي، وهو بناء اقتصادي في الأساس يقوم على التخطيط ورأسمالية الأفكار وقوانين السوق وليس "سوق البركة"¹. والدين أيضا ظاهرة اجتماعية تتجلى في العلوم الدينية مثل الكلام والتصوّف وأصول الفقه بل والعلوم النقلية مثل التفسير والفقه². والاقتصاد أيضا ظاهرة اجتماعية وليس فقط ظاهرة مادية³. وتظهر السياسة منذ "شروط النهضة ومشكلات الحضارة" وهي إحدى مبررات إقامة كومونيلث إسلامي⁴. وللسياسة معنى أخلاقي؛ لذلك يتضمّن "في مهب المعركة" الفصل الثاني "في وحل السياسة". كما يتضمّن ظاهرة الحقد على الإسلام. ويتطرق إلى أحداث سياسية بالمغرب وبعض ملوكه، وبعض المؤتمرات السياسية في "كولمبو" و"جنيف"⁵. ويخصّص "بين الرشاد والته" الفصل الثالث كله للسياسة. ويتعرّض لعلاقة السياسة بالأخلاق وبالأيديولوجيا وبالثقافة وبحكمة الجماهير وبالألاعيب السياسية (البوليتيك)⁶.

¹ من أجل التغيير: الفصل الأول: في البناء الاجتماعي ص 9-48.

² ميلاد مجتمع: الدين والعلاقات الاجتماعية ص 54-59.

³ المسلم في عالم الاقتصاد: المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص 109-118.

⁴ شروط النهضة ومشكلات الحضارة: دور السياسة والفكرة ص 21-27. فكرة كومونيلث إسلامي.

المبررات الجغرافية السياسية ص 12، أسباب جغرافية سياسية ص 40-41.

⁵ في مهب المعركة: في وحل السياسة ص 51-89.

⁶ بين الرشاد والته: في السياسة ص 71-102.

وتقوم فكرة الإفريقية الآسيوية في بعض أسسها على الاقتصاد¹. ثم يتوسّع الاقتصاد في "بين الرشاد والتهيه" الذي يخصّص الفصل الخامس "حول الاقتصاد". ويحلّل المؤتمرات الاقتصادية ومنها مؤتمر "نيودلهي". ويبين إمكانيات البترول العربي وشروط الإقلاع الاقتصادي، والفرق بين اقتصاد القوت واقتصاد التنمية، ويختار اقتصاد الصناعة أي الإنتاج على اقتصاد الاستيراد "نشترى أم نصنع؟"². وفي "من أجل التغيير" يصوغ مذهباً اقتصادياً إسلامياً وسطاً بين الماركسية والرأسمالية³.

وقد خصّص للاقتصاد مؤلفاً خاصاً "المسلم في عالم الاقتصاد" مثل "الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية" لـ "عبد القادر عودة". وهو كتاب نسقي منطقي علمي. يتكوّن من ثلاثة أجزاء : الأول "عموميات البحث"، يعرض لصورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم. ينقد النزعة الاقتصادية، ويبين حدود الاختيار الإسلامي. والثاني "صورة المشكلات"، يبين خريطة توزيع الإمكانات الاقتصادية في العالم، وحدود التفسير الاقتصادي، والبحث لتوزيع الإمكانيات، ويعيد بناء عالم الاقتصاد على أسس حضارية.

والثالث "شروط الأخلاق" يحدّد بعض الإجراءات الاقتصادية مثل دور المال في اختزان العمل والاستثمار المالي والاجتماعي، وضرورة الاكتفاء الذاتي، وتطوير الاقتصاد الوطني إلى اقتصاد جهوي لتحقيق

¹ فكرة الإفريقية الآسيوية: مبادئ اقتصاد أفروآسيوي فعال ص 169-194. تأملات: قيم إنسانية وقيم اقتصادية ص 49-62.

² بين الرشاد والتهيه: الفصل الخامس: حول الاقتصاد ص 145-196.

³ من أجل التغيير: المذهب الاقتصادي الاجتماعي المنتظر ص 17-21.

الاكتفاء. والاقتصاد في النهاية جزء من حركية المجتمع وله أساس مبدئي في الأخلاق.

8- الثقافة والحضارة والتاريخ

ويتمّ عرض موضوع الثقافة في "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" كما فعل "علي شريعتي" في "دور المفكر"¹. العنوان كبير والحجم صغير، والموضوعات متفرقة متناثرة مما يجعل "علّال الفاسي" المعاصر له والمتوفى في نفس العام 1973 أكثر إحكاما نظريا في ارتباطه بالتراث الأصولي القديم في فكرة المقاصد عند "الشاطبي" في "مقاصد الشريعة ومكارمها"، وبالجانب النظري في "مشكلة الحرية" وفي الشعر. ويشاركه في "النقد الذاتي"، ووحدة المغرب العربي، وحركات الاستقلال².

وتبدو أولوية الثقافة في "مشكلة الثقافة"، وهي ليست الثقافة المتعالية أو النظرية المجردة ولكنها تلك التي تركز على أسس نفسية. إذ ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول غير متساوية في الحجم، الأول تحليل نفسي للثقافة بعد تعريف الثقافة وربطها بعلم الاجتماع ثم اختيار علم النفس الثقافي ومقاييسه الذاتية والثاني "تركيب نفسي للثقافة" وهي تراكيب جزئية وكلية، تكررنا لبعض ما قيل في "شروط النهضة ومشكلات

¹ انظر دراستينا: "رسالة الفكر"، "دور المفكر في البلاد النامية"، قضايا معاصرة ج1 في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1976 ص3-40.

² علّال الفاسي: مقاصد الشريعة ومكارمها، مشكلة الحرية، الرسالة 1977 ديوان علّال الفاسي (ثلاثة أجزاء)، الرسالة 1984-1989.

الحضارة" فيما يتعلق بتوجيه الأفكار، وتوجيه الثقافة، والتوجيه الأخلاقي، والتوجيه الجمالي، والتوجيه الفني أو الصناعة¹، والثالث تعايش الثقافات، ولا يعني ذلك إلغاء الصراع بينها والذي يعبر عن صراع القوى مثل الصراع بين محور طنجة-جاكارتا مع محور واشنطن-موسكو²، والرابع الثقافة في اتجاه العالمية والخامس الثقافة المضادة³.

والثقافة هي الثقافة الحية وليست الأفكار الميتة أو الأفكار القتلة. تنبع من الضمير، وتقوم على النقد السليم⁴. وهي بنية في الفكر واللغة والواقع الذي يحكمه قانون الفعل وردّ الفعل⁵. وهي ثقافة تاريخية مرتبطة بشعب وحضارة مثل الثقافة الإفريقية الآسيوية⁶.

ويستمرّ نفس الموضوع في "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" في عمومياته ومظاهره وأهميته باعتباره حلبة الصراع الأولى، بل يمكن البرهنة على حياة الأفكار بالبراهين الرياضية. ومن هنا تأتي أهمية دلالة أحزاب الجامعة في "البناء الثقافي" أي الثورة الثقافية وحركات الشباب التي بدأت في فرنسا والغرب عامة في مايو 1968 والتي بعدها استقال "ديغول"⁷.

والثقافة هي أيضا عالم الأفكار، والأفكار ليست تصوّرات مجردة أو مفاهيم نظرية بل هي دوافع على الفعل، أقرب إلى الأفكار-القوة عند

¹ مشكلة الثقافة ص 67-89. شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص 73-123.

² مشكلة الثقافة ص 95-112.

³ المرجع السابق ص 113-138. تأملات: الثقافة ص 139-152.

⁴ في مهبط المعركة: في حديقة الثقافة ص 127-170. القضايا الكبرى: مشكلة الثقافة ص 65-90.

⁵ من أجل التغيير: الفصل الثاني: في البناء الثقافي ص 49-97.

⁶ فكرة الإفريقية الآسيوية: نظرات عامة في الثقافة الأفروآسية ص 151-168.

⁷ من أجل التغيير: دلالة أحزاب الجامعة ص 86-91.

"فوييه" و"جيو"¹. وهذا ما يتّضح من "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي". وهو أقرب المؤلفات إلى الفلسفة وأكثرها اقترابا من التحليل النظري مثل "الظاهرة القرآنية". وهو أشبه بكتاب "خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته" لـ "سيد قطب". يتضمّن سبعة عشر فصلا ومقدمة وخاتمة صغيرتين لكن كلّها تدور حول موضوع الأفكار كردّ فعل على الفراغ الكوني². وترتبط الأفكار بالطفل منذ نشأته، وبالمجتمع منذ ولادته، وبالحضارة وقيامها، وبالسياسة ومسارها، وباللغة وأدوات التعبير عنها³. والأهمّ من ذلك كلّ هو حيوية الأفكار وحركيتها في المجتمع. فعالم الأفكار ليس عالما ميتا، بل إنّ من الأفكار أفكارا ميتة وأفكارا مميّنة، حيويّتها في جدليّتها، جدلية العالم الثقافي، وجدلية الفكرة والشيء، وجدلية الفكرة والوثن؛ فاعليّتها من أصلاتها وهي أساس تحريك المجتمع وقيام الثورات فيه. والأفكار المخدولة تنتقم من الموت لتبعث فيها الحياة⁴. وتدخل "الثقافة" مع "الحضارة" و"المفهومية" لتكوّن ثلاثيا في "القضايا الكبرى". ويبدو أن المفهومية هي التحليل الفلسفي للمفاهيم بعد أن غابت الفلسفة في المشروع كلّ. فالثقافة لا تستقلّ بذاتها بل هي أحد أبعاد الحضارة والتاريخ⁵.

ويعرض "شروط النهضة ومشكلات الحضارة" مسار الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ. يضع الحاضر والتاريخ أي الماضي في باب

¹ Les Idées-Forces

² مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 17-34.

³ المرجع السابق ص 26-48/130-136/137-145.

⁴ المرجع السابق ص 49-129/146-162.

⁵ القضايا الكبرى: مشكلة الحضارة 29-64.

أول، والمستقبل في باب ثانٍ. ويضم البابان عدة موضوعات متفرقة يغلب عليها الرومانسية خاصة في البداية "أنشودة رمزية" ثم يأتي دور الأبطال والسياسة والفكرة بل والوثنية¹. والمستقبل هو الأهم²، ويغلب عليه مفهوم التوجيه، توجيه الثقافة، وتوجيه الأخلاق، وتوجيه الجمال، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال³. ثم ترد استطرادات في توجيه الثقافة، في تعريف الثقافة والحرفية في الثقافة⁴، وتضاف استطرادات أخرى في توجيه العمل في المنطق العملي والصناعة⁵، وتُشفع باستطراد في توجيه الجمالي عن الفنون الجميلة⁶. وتعرض موضوعات أخرى يصعب إدخالها ضمن مفهوم التوجيه وأبعاده مثل مشكلة المرأة، ومشكلة الزي ومشكلة التكيف⁷. ومن ثم تتفرق الموضوعات على نحو غير متسق أو منهجي ودون تأسيس نظري في نظرة حضارية شاملة لكل نشاطات الذهن الإنساني. إذ يقوم الاقتصاد أيضا على أسس حضارية، والعلوم الإنسانية كلّها تعبير عن رؤية حضارية واحدة⁸.

¹ شروط النهضة ومشكلات الحضارة: الباب الأول: الحاضر والتاريخ ص 15-39.

² يقع الماضي والتاريخ في 25 صفحة في حين يقع المستقبل في 115 صفحة أي أكثر من أربعة أضعاف.

³ شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص 73-77/85-92/97-106.

⁴ المرجع السابق ص 78-84.

⁵ المرجع السابق ص 93-100.

⁶ المرجع السابق ص 88-92/120-123.

⁷ المرجع السابق ص 107-119/151-155.

⁸ فكرة الإفريقية الآسيوية: مشكلة الحضارة ص 137-150. المسلم في عالم الاقتصاد ص 69-75.

وللتاريخ علاقة بباقي العلوم الإنسانية مثل الفلسفة والاجتماع¹، بل كلها سُمّيت في وقت ما "العلوم التاريخية". والتاريخ هو مادة فلسفة التاريخ. وفلسفة التاريخ موضوع ثابت في معظم المؤلفات منذ "شروط النهضة ومشكلات الحضارة". كتاب "وجهة العالم الإسلامي" هو أيضا في فلسفة التاريخ يتكوّن من ستة فصول تصف مسار المجتمع الإسلامي عامة والمغربي خاصة في التاريخ ابتداء من مجتمع ما بعد الموحدين، مروراً بالنهضة، ونهاية بفوضى العالم الإسلامي الحديث، وفوضى العالم الغربي ثم استشرافا لمرحلة قادمة أكثر أملا بالطرق الجديدة. وقد بدأت بشائرها في بواكير العالم الإسلامي والمآل الروحي لعالم الإسلام.

وقد تصوّر "ابن خلدون" من قبل التاريخ كدوران يحدث فيه التراكم التاريخي وليس التكدّيس حتى يتحقق قانون التاريخ². ويظهر الثلاثي الذي يكوّن أسس الحركة في المجتمع والتاريخ: الإنسان والتراب والوقت أي الإنسان والأرض والزمان³. وهي ثلاثية الإنسان بين السماء والأرض، بين الله والعالم، بين الخلود والزمان. وهي ثلاثية معروفة في كل حضارة. مثلها "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو" عند اليونان، و"أوغسطين" و"بونافنتورا" و"توما الإكويني" في العصر الوسيط الأوروبي، و"سقراط" و"هيجل" و"ماركس" في العصور الأوروبية الحديثة. وهي

¹ ميلاد مجتمع: الآراء المختلفة في تفسير الحركة التاريخية ص 20-25، التاريخ والعلاقات الاجتماعية ص 26-27.

² شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص 42-68.

³ المرجع السابق ص 69-124/72-136. بين الرشاد والتهيه: وزن الوقت ص 67-69، تغيير الإنسان ص 49-54.

معنى آية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن
يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾¹.

هذه هي ملحمة فكر "مالك بن نبي" قبل ثلاثين عاما وعلى مدى
سبعة عقود. يعيد صياغتها أبنائه الذين عرفوه بل وأحفاده الذين يستأنفوه
نظرا وبنوايا حسنة.

¹ الأحزاب، الآية 72.